

## خصائص الحياة الربانية أو الروحية في الإسلام

للحياة الربانية أو الروحية في الإسلام خصائص تميزها عن أى حياة تنسب إلى الروح في الأديان الأخرى ، كتابية أو وضعية .

### ١ - التوحيد :

التوحيد هو أول خصائص الحياة الروحية في الإسلام ، وهو أيضاً أول مقوماتها ، فلا وجود لهذه الحياة بغير التوحيد ، ولا تميز لها بغير التوحيد . ومعنى التوحيد هو : إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا يُعبد إلا الله ، ولا يُستعان إلا بالله ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الآية التى جعلها الله تعالى واسطة عقد فاتحة الكتاب وأم القرآن ، وجعلها الإمام الهروى محور رسالته « منازل السائرين ؛ إلى مقامات : إياك نعبد وإياك نستعين » والتى شرحها ابن القيم فى « مدارج السالكين » .

والعبادة معنى مركّب من عنصرين : غاية الخضوع للمعبود ، مع غاية الحب له ، كما شرحنا ذلك فى كتابنا « العبادة فى الإسلام » . وهى الغاية من خلق المكلفين جميعاً : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) . لقد بين القرآن أن الأنبياء جميعاً بعثوا إلى أقوامهم برسالة التوحيد : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) ، وتحريروهم من عبادة الطاغوت أياً كان اسمه وعنوانه ، وأياً كان شكله وصورته : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) .

(١) الذاريات : ٥٦

(٢) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، وهود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، والمؤمنون :

٢٣ ، ٣٢

(٣) النحل : ٣٦

قد يكون هذا الطاغوت المعبود من دون الله بَشَرًا ظاهراً أو جنأً مختفياً عن  
الأعين . وقد يكون حيواناً كالبقرة والعجل ، وقد يكون قوة من قوى الطبيعة ،  
وقد يكون حجراً من الأحجار ، نحته الناس وصوروه ثم عبده ! قد يكون  
شيطاناً مريداً . وقد يكون نبياً معصوماً أو ولياً صالحاً ، ولا ذنب له في  
عبادتهم إياه .

جاء الإسلام يحزر الناس من عبادة غير الله : عبادة الأشخاص ، وعبادة  
الأشياء ، وعبادة الأهواء . وقد قال ابن عباس : « شر إليه عبد في الأرض الهوى » .  
وكانت دعوة النبي ﷺ إلى ملوك النصارى وأمراء أهل الكتاب تُختم بهذه  
الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا  
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) .

إن الذي أفسد الحياة ، وأضلَّ الناس ، ليس هو الإلحاد ، فقد كان  
الملحدون الجاحدون لوجود الله قلَّة لا وزن لها طوال عصور التاريخ ، إنما هو  
الشرك ، الذي جعل الناس يعبدون مع الله آلهة أخرى ، يزعمون أنها  
شفعاؤهم عند الله . وقد غدا هذا الشرك وكرأ للكهانة والدجل ، ومبابة  
للخرافات والأباطيل . والانحطاط بالإنسان من ذرا الكرامة إلى حضيض  
الهبوان : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى  
بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢) .

إن الحياة الروحية كما يريدتها الإسلام تقوم على التوحيد الخالص لله ،  
وهذا التوحيد يقوم على عناصر أربعة ، أشارت إليها سورة الأنعام ، وهي  
سورة التوحيد :

أولها : ألا يبغي غير الله رباً : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ  
شَيْءٍ ﴾ (٣) .

(٣) الأنعام : ١٦٤

(٢) الحجج : ٣١

(١) آل عمران : ٦٤

وثانيها : ألا يتخذ غير الله ولياً : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) .

وثالثها : ألا يتبغى غير الله حكماً : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُتْبَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (٢) .

ورابعها : ألا يتبغى غير رضا الله غاية : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (٣) .

فإذا اكتملت هذه العناصر علماً وحالاً وعملاً ، تحقق التوحيد ، الذي هو أساس الحياة الروحية ، بل هو روح الوجود الإسلامى كله .

\* \*

## ٢ - الاتباع :

وثانية خصائص هذه الحياة كما يريدتها الإسلام : الاتباع .

فليست الحياة الربانية أو الروحية الإسلامية مادة هلامية رجراجة ، يشكلها الناس بما يشاءون ، وكيف يشاءون ، بل هى حياة منضبطة بأحكام الشرع الإلهى .

وإذا كان جوهر الحياة الروحية هو حسن الصلة بالله تعالى ، بذكره وشكره وحسن عبادته جلَّ شأنه ، فإن هذه الصلة مضبوطة بأصلين أساسيين :

الأول : أن تكون العبادة لله وحده ، فلا يُشْرِكُ به أحد ، ولا يُشْرِكُ به شئ ، لا نبي ولا ولي ، ولا ملك ولا جن ، ولا بشر ولا حجر :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (٤) .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٥) .

الثانى : ألا يعبد الله إلا بما شرعه ، فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ . حتى لا يشرع أحد فى الدين ما لم يأذن به الله ، فالأصل فى العبادات

(٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٢) الأنعام : ١١٤

(١) الأنعام : ١٤

(٥) الكهف : ١١٠

(٤) البينة : ٥

الشعائرية التوقيف والمنع ، حتى يأتي نص من الشارع ينشئها . على خلاف الأصل فى العادات والمعاملات وشئون الحياة ، فالأصل فيها الإذن والإباحة ، ما لم يأت نص محرّم من الشارع .

وقد سئل أبو على الفضيل بين عياض رضى الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) : ما أحسن العمل ؟ قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه ، فلا يُقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، قيل : وما خلوصه وصوابه ؟ قال : خلوصه أن يكون لله ، وصوابه أن يكون على السنّة .

فالذين يحكمون أذواقهم ومواجيدهم فى إنشاء صور وابتداع أشكال وأساليب للعبادة ، استحسنتها عقولهم ، وزينتها لهم أهواؤهم ، مخطئون خطأ فاحشاً ، وإن كانوا يقصدون التقرب إلى الله تعالى : فإن شرعية العبادة لا تُستمد من تحسين العقل ، ولا من تزيين الهوى ، بل من الوحي وحده .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » (٢) يريد : من ابتدع فى ديننا صوراً للتعبد لم يشرعها الله فهى مردودة عليه ، غير مقبولة منه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٣) .

\* \*

(١) هود : ٧ ، والملك : ٢

(٢) متفق عليه عن عائشة : انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي - الحديث (١١٢٠) .

(٣) رواه عن العرياض بن سارية : أبو داود (٤٦٠٧) والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٣) ، (٤٤) ، وأحمد (١٢٦/٤ ، ١٢٧) والحاكم (٩٥/١ ، ٩٧) وابن حبان (٥) وغيرهم ، وهو الحديث الثامن والعشرون فى جامع العلوم والحكم لابن رجب .

### ٣ - الامتداد والشمول :

وثالثة هذه الخصائص تتمثل فى الامتداد والشمول .

فالمسلم لا يعيش حياتين متناقضتين : روحية مستقلة ومادية منفردة . .

بل هى حياة واحدة تتمزج فيها الروحانية بالمادية امتزاج الروح بالجسم والعصارة بالغصن .

فالحياة الروحية للمسلم حياة ممتدة عميقة نافذة شاملة ، تصحبه فى جلوته وخلوته ، فى البيت وفى الطريق ، فى العلم وفى العمل ، فى السفر وفى الحضر ، عند النوم وعند اليقظة ، فليست الحياة الروحية للمسلم مقصورة على المسجد ، عند أداء العبادة الشعائرية ، ثم ينطلق محلول اللجام ، لا يتقيد بشيء ، بل هو مع الله دائماً ، لا يغفل عنه ، ولا ينسى ذكره ، ولا يهمل رقيبته : ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فِثْمَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (١) ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (٢) .

ولهذا شرع الذكر والدعاء فى كل شأن من شئون الحياة : فى الإصباح والإمساء ، والدخول والخروج ، والأكل والشرب ، والنوم واليقظة ، والسفر والأوبة ، حتى عند الشهوة الجنسية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٣) .

والمسلم فى أعماله الدنيوية المحضنة من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة ، ليس معزولاً عن الحياة الروحية ، فهو مطالب بأن يراقب الله فى عمله ، فيتقنه ، فلا يغش ولا يخون ولا يظلم : « إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن » (٤) ، « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » (٥) . وهو مطالب كذلك ألا يلهيه أمر

(١) البقرة : ١١٥ (٢) المجادلة : ٧ (٣) الأحزاب : ٤١ - ٤٢

(٤) رواه البيهقى فى « شعب الإيمان » عن كليب ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٨٩١) .

(٥) رواه مسلم عن شداد بن أوس برقم (١٩٥٥) وهو الحديث السابع عشر فى « جامع العلوم والحكم » .

دنياه عن واجبه نحو ربه ، فإذا نادى المنادى أن « حىّ على الصلاة » انتشل نفسه من لجة الأشغال الدنيوية ، ليقف بين يدي ربه مناجياً خاشعاً ، وهو ما وصف الله به رؤّاد مساجده ، وعمّار بيوته ، بقوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَدَانَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١) .

على أن المسلم بنيته الصالحة ، واتجاهه الصادق إلى الله ، يستطيع أن يجعل أعماله الدنيوية عبادات وقربات إلى الله تعالى .

إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى « في اللقمة يضعها في فم امرأته » (٢) من باب الممازحة والموانسة . حتى الصلة الجنسية المباحة ، صلة الزوج بزوجه ، كما جاء في الصحيح : « وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » ، قالوا : يا رسول الله ؛ أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » (٣) . ومقتضى هذا أن تغدو الأرض كلها مسجداً للمسلم ، يتعبد فيه لربه ، وتصبح أعماله كلها قربات إلى الله جلّ جلاله ، فهو يشعر دائماً أنه في محراب صلاة ، لأنه أبدأ مع الله !

\* \*

#### ٤- الاستمرار :

والخصيصة الرابعة هي : الاستمرار .

فإذا كانت الحياة الروحية تصحب المسلم أفقياً أو مكانياً في كل مجالات حياته ، فإنها تصحبه كذلك رأسياً وزمانياً في جميع أوقاته ، وأطوار حياته حتى يلتقى ربه .

(١) النور : ٣٦ - ٣٧

(٢) من حديث سعد بن أبي وقاص المتفق عليه ، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٠٥٣) .

(٣) رواه مسلم في الزكاة من صحيحه عن أبي ذر برقم (١٠٠٦) بتحقيق محمد فؤاد

عبد الباقي .

فإذا كانت بعض الديانات تكتفى من الإنسان أن يعبد ربه يوماً في الأسبوع ،  
أو - على الأصح - ساعة من يوم ، ثم ينصرف عنه سائر الأسبوع إلى دنياه  
وشهواته ومشاغله الخاصة - فإن الإسلام له موقف آخر .

إن هناك عبادات تُطلب من المسلم في العمر مرة واحدة ، مثل الحج ،  
طلب افتراض وإلزام .

وهناك عبادات تُطلب من المسلم كل عام ، مثل صوم شهر رمضان ،  
وزكاة الأموال الحَوَلِيَّة .

وهناك عبادة تُطلب من المسلم كل أسبوع مرة ، وهي صلاة الجمعة .

ولكن هناك - إلى جوار هذا كله - عبادة يومية ، تصل المسلم دائماً بربه  
وتجعل على موعد معه ، في كل يوم خمس مرات ، تُذكّره إذا نسى ، وتنبهه  
إذا غفل ، وتقويه إذا ضعف ، وهي الصلوات المفروضة ، التي اعتبرها  
الإسلام عمود الدين ، والفيصل بين المسلم والكافر : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي  
النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي  
لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وهي عبادة تجب على المسلم في السَّفَر والحَضَر ، وفي الصحة والمرض ،  
وفي السلم والحرب ، لا تسقط بحال من الأحوال .

ولهذا نجد في الفقه الإسلامي صلاة المسافر ، بما فيها من قصر وجمع ،  
وصلاة المريض ، وفيها حديث : « صَلَّى قَائِماً ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فِقَاعِداً ، فَإِنْ  
لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ » (٢) .

وصلاة الخوف - أو صلاة الحرب - وفيها جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ  
فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

(١) هود : ١١٤

(٢) رواه أحمد والبخارى وأصحاب السنن عن عمران بن حصين ، صحيح الجامع  
الصغير وزيادته (٣٧٧٨) .

أَسْلَحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴿... الآية (١) .

حتى في حالة التحام الصفوف ، والتقاء السيوف بالسيوف ، واحتدام المعركة بين الطرفين ، يصلى المسلم كيفما استطاع ، راجلاً أو راكباً ولو بالإيماء ، دون اشتراط ركوع أو سجود أو اتجاه إلى قبلة ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ \* فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ (٢) .

هذا إلى أن المسلم مأمور بذكر الله تعالى في كل أحيانه ، وعلى كل أحواله ، سافراً أو مقيماً ، صحيحاً أو سقيماً ، قائماً أو قاعداً أو على جنب . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٣) . غير الأذكار التي وردت بأسبابها ومناسباتها الخاصة ، وقد ألفت في ذلك كتب خاصة .

والمسلم مطالب بعبادة الله تعالى ما دام فيه عرق ينبض ، ونفس يتردد ، حتى يوافيه الموت ، وينتهى أجله المحدود : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٤) ، واليقين هنا الموت ، كما في قوله تعالى على لسان الكفار يوم القيامة : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ \* حَتَّى آتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (٥) .

\* \*

## ٥ - اليسر والسعة :

والخصيصة الخامسة هي : اليسر والسعة .

فالحيوة الروحية في الإسلام - برغم امتدادها وشمولها واستمرارها - حياة سهلة ميسرة ، لا تكلف الإنسان شططاً ، ولا ترهقه عسراً ، ولا تحمله من الأصار والأغلال ما يقصم ظهره ، فهو غير مكلف إلا بما في وسعه ، ولا مطالب إلا بما يستطيعه ويقدر عليه دون مشقة شديدة .

(٣) الأحزاب : ٤١ - ٤٢

(٢) البقرة : ٢٣٨ - ٢٣٩

(١) النساء : ١٠٢

(٥) المدثر : ٤٦ - ٤٧

(٤) الحجر : ٩٩

ولا غرو أن وجدنا القرآن ينفي الحرج عن هذا الدين نفياً كلياً ، فيقول :  
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (١) .

ويقول في ختام آية الطهارة وشرعية التيمم : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

وفي ختام آية الصوم ، وما ذكر فيها من الرخصة للمريض والمسافر من  
الفطر والقضاء ، يقول : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣) .

ويذكر القرآن صفة النبي ﷺ ، عند أهل الكتاب : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) ، فهذا هو عنوان رسالته عند أهل الكتاب ، وهو ناطق

بما تحمله من السعة والتيسير ، ورفع آصار التكاليف الثقيلة التي كانت على من قبلنا ، ولهذا علم الله المؤمنين أن يقولوا في دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (٥) . وقد ورد في الصحيح : أن الله استجاب لهم هذا الدعاء .

ومن ثمَّ وجدنا الحياة الروحية في الإسلام تتسع لكل مراتب الناس ودرجاتهم :  
الدنيا والوسطى والعليا ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٦) .

فهناك من يكتفى بأداء الفرائض ، وقد يُقصر فيها ، ويقتصر على ترك  
المحرّمات وقد يقع فيها ، وهو الظالم لنفسه .

(٣) البقرة : ١٨٥

(٢) المائدة : ٦

(١) الحج : ٧٨

(٦) فاطر : ٣٢

(٥) البقرة : ٢٨٦

(٤) الأعراف : ١٥٧

وهناك مَنْ يلتزم بأداء الفرائض ولا يُقصر فيها ، ويلتزم بترك المحرّمات ولا يتهاون فى الوقوع فى شىء منها ، وهو المقتصد .

وهناك مَنْ لا يكفيه ترك المحرّمات ، بل يتقى الشبهات استبراءً لدينه وعرضه ، بل يرتقى فيدع المكروهات ، ثم يرتقى فيدع ما لا بأس به حذراً بما به بأس . وفى جانب المأمورات لا يكفيه أداء الفرائض ، ولا يشبع نهمته ، فهو يتقرّب إلى الله بالنوافل حتى يحبه ، كما فى الحديث القدسي الشهير : « ما تقرّب إلى عبدى بأفضل مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وقدمه التى يسعى بها ، ولئن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه » (١) .

فإذا كانت الفرائض توصل صاحبها إلى منزلة « القرب » من الله ، فإن النوافل ترقى به إلى منزلة « الحب » من الله تعالى ، وهى منزلة السابق بالخيرات بإذن الله .

لقد وسعت الحياة الروحية الإسلامية الأعرابى الذى سأل النبى ﷺ عن فرائض الإسلام ، فعرفه إياها : من الصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، وصوم رمضان ، وهو يسأل فى كل منها : هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » ، ثم قال فى النهاية بكل صراحة : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال النبى ﷺ : « أفلح إن صدق » . . أو « دخل الجنة إن صدق » (٢) .

ووسعت - مع هذا الأعرابى - العبّاد الزهّاد من الصحابة مثل أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وأبى الدرداء ، وسلمان ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة برقم (٦٥٠٢) انظر : البخارى مع الفتح ، وهو الحديث الثامن والثلاثون فى « جامع العلوم والحكم » لابن رجب ، وانظر كلامه عنه : ٣٣٠ / ٢ وما بعدها - طبعة مؤسسة الرسالة . بيروت .

(٢) متفق عليه عن طلحة ( اللؤلؤ والمرجان ) برقم (٦) .

وتتسع الحياة الروحية فى الإسلام للعصاة التائبين ، ولا تغلق فى وجوههم باب الرحمة ، مهما تكن جرائمهم ، وإسرافهم على أنفسهم ، وفى هذا يقول القرآن : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

فانظر كيف أمر الله رسوله أن يناديهم بهذا النداء اللطيف برغم معصيتهم وإسرافهم على أنفسهم : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ ليشعرهم بأن صلتهم بربهم لم تنقطع وأنهم - برغم ما ظلموا وأسرفوا - عبادهم ، الذين لا يجوز لهم أن يقنطوا من رحمته أو ييئسوا من روحه ، فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وقد ذكر الله قوماً أشركوا وقتلوا وزنوا ثم تابوا فتاب الله عليهم : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا \* إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢) .

وقرأ الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه قوله تعالى فى سورة البروج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (٣) فقال معجباً من عظيم فضل الله تعالى وسعة عفوه ورحمته : قتلوا أوليائه ، ثم لم يوتسهم من التوبة !

وفى قصة المرأة الغامدية التى اقترفت كبيرة الزنى وهى محصنة ، وأصررت أن تتطهر بإقامة حد الله عليها ، مهما تكن شدته ، قال فيها

(١) الزمر : ٥٣

(٢) الفرقان : ٦٨ - ٧٠

(٣) البروج : ١٠

النبي ﷺ : « لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم » (١) .

\* \*

## ٦ - التوازن والاعتدال :

والخصيصة السادسة لهذه الحياة الربانية هي : التوازن والاعتدال فالحياة الروحية في الإسلام - كما شرعها الله ورسوله - حياة معتدلة ، متوازنة ومتناسقة مع جوانب الحياة المادية الأخرى ، فلا يُقبل فيها التنطع ، ولا الغلو ، الذي يجور به المسلم على نفسه ، وعلى حقوق الآخرين .

وهذا العنصر مكمل لعنصر اليسر والسهولة ، الذي تحدثنا عنه ، بل هو لازم من لوازمه ، فإن المكلف الذي يخرج عن حد الوساطة والاعتدال ، يدخل - لا محالة - في دائرة العسر والحرج .

لم يطلب الإسلام من المسلم أن يعتزل الناس والحياة ، ليتعبد لله في صومعة أو يترهب في دير ، بل أنكر على الذين ابتدعوا الرهبانية من عند أنفسهم ، ثم لم يراعوها حق رعايتها .

وأنكر الرسول الكريم ﷺ ، على مَنْ غَلَا من أصحابه في العبادة أو الزهد ، مبيناً لهم طريق الاعتدال ، ومنهج التوازن ، وهو طريقه ومنهجه صلى الله عليه وسلم . أى سُنَّتَهُ التي يجب اتباعها ، ولا يجوز رفضها ، ولهذا قال للثلاثة الذين سألوا عن عبادته من أزواجه ، فلما عرفوها تقالُّوها ( عددها قليلة ) وقالوا : أين نحن من رسول الله ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ وقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ، ولا أفطر ، وقال الثاني : وأنا أقوم الليل فلا أرقد ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . وسمع النبي ﷺ بمقاتلتهم فجمعهم وخطب فيهم قائلاً : « إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له . ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سننِي فليس مني » (٢) .

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عمران بن حصين ، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥١٢٨) .

(٢) متفق عليه عن أنس ( اللؤلؤ والمرجان ) برقم (٨٨٥) .

إن الحياة الروحية الإسلامية لا تقتضى من المسلم أن يديم صيام النهار ، وقيام الليل ، وبذلك يجور على حق بدنه فى الراحة ، وحق عينه فى النوم ، وحق أهله فى المؤانسة ، وحق مجتمعه فى المعونة ، وهذا ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو ، حين تفرغ للصيام والقيام والتلاوة ، وغفل عن حق نفسه ، وحق زوجته ، وحق زوَّاره ، فأمره النبى بالاعتدال فى ذلك قائلاً : « فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً » (١) .

والحياة الروحية فى الإسلام لا تستوجب من المسلم أن يُحرِّم على نفسه طيبات الحياة الدنيا ، كما صنعت المانوية فى فارس ، والبرهمية فى الهند ، والبوذية فى الصين ، والرواقية فى اليونان ، والرهبانية فى الديانة النصرانية .

والقرآن الكريم فى غير موضع منه ، شدَّد الإنكار على الذين حرَّموا طيبات ما أحلَّ الله ، وبيَّن لهم أن الله تعالى خلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، وما كان سبحانه ليخلقها لهم ، ثم يُحرِّمها عليهم !

كل ما طلبه منهم أن يتناولوها باعتدال ، بلا إسراف ولا تقتير ، وألا يعتدوا فيها على حق أحد ، وأن يشكروا نعمة الله فيها ، بالاستعانة بها على طاعته وعدم استخدامها فى معصيته ، وإفساد أرضه .

يقول تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ \* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَافْسِدِينَ ﴾ (٤) .

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو ( اللؤلؤ والمرجان ) برقم (٧١٥)

(٢) الأعراف : ٣١ - ٣٢ (٣) النحل : ١١٤ (٤) البقرة : ٦٠

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ \* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ (١) .

فلا حرج على المسلم أن يستمتع - وهو فى قمة ارتقائه الروحى - بطيبات المأكّل والمشرب ، وطيبات الملبس والزينة ، وطيبات المسكن والمأوى ، وطيبات الحياة الزوجية ، وطيبات اللّهو والترويح (٢) .

\* \* \*

## ٧ - التنوع :

ومن خصائص الحياة الروحية فى الإسلام : التنوع ، فالمسلم الذى يعبد ربه ويتقرب إليه ، ويغذى روحه بحبه ، وقلبه بقربه ، وعقله بمعرفته سبحانه ، لا يحبس نفسه على نوع معين من التعبّد أو الجهاد الروحى .

إن أمامه فرصاً جمّة ، ومجالات رحبة ، يصول فيها ويجول ، ويجد كل إنسان فيها ما يشغل طاقته ، ويشبع نهمته ، وينقع غلته .

فقد نوع الإسلام فى مطالبه الروحية من الإنسان المؤمن ما بين قول وعمل ، وفعل وترك ، وإلزام وتطوع ، وعمل جارحة وعمل قلب ، وما بين ليل ونهار ، وسر وعلانية .

من عبادات الإسلام ما هو قولى كالذكر وتلاوة القرآن ، وما هو فعلى كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما هو تركى كالصيام الذى هو إمساك وحرمان .

ومنها ما هو بدنى خالص كالصلاة والصيام والجهاد بالنفس ، وما هو مالى خالص كالزكاة والصدقات والجهاد بالمال .

(١) المائدة : ٨٧ - ٨٨

(٢) انظر : حديثنا عن هذه الطيبات فى كتابنا « دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى » ض ٦٥ - ٧٩ - نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة .

وما هو جامع بينهما كالحج والعمرة ، والجهاد بالنفس والمال معاً .  
ومنها ما هو إيجاب ، كفعل المأمورات ، فرائض لازمة أو نوافل مستحبة .  
ولا ريب أن الفرائض مُقدّمة على النوافل ، ولا يقبل الله النافلة حتى تؤدي  
الفريضة ، والمحافظة على أداء الفرائض تفضي بالإنسان إلى منزلة « القرب »  
من الله تعالى ، والمحافظة على النوافل ترقى به إلى منزلة « الحب »  
لله تعالى .

وفي هذا جاء الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه : « ما تقرب  
إلىَّ عبد بأفضل مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى  
أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده  
التي يبطش بها . . . » .

ومنها : ما هو سلب مثل ترك المنهيات ، مُحرمات كانت أو مكروهات .  
وأول ما يجب اجتنابه - بعد الشرك - هو الكبائر ، ثم يرتقى المرء  
فيجتنب صغائر المحرمات ، ثم يتقى الشبهات ، استبراءً لدينه وعرضه ، ثم  
يرتقى فيجتنب المكروهات ولو كانت كراهتها تنزيهية ، ثم يزداد ارتقاءً ،  
فيتقى بعض الحلال ، خشية أن يجر إلى المكروه ، فالشبهة ، فالحرام ، كما  
في الحديث : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً  
لما به البأس » (١) .

وهذا الجانب التركي أو السلبي أمر مهم ، وهو بمثابة التخلية قبل التحلية ،

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة عن عطية السعدي ، وقال : حسن غريب ، برقم  
(٢٤٥٣) - طبعة حمص بتعليق عزت الدعاس ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤٢١٥)  
وفي سننه عبد الله بن يزيد ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وضعفه ابن حجر في  
التقريب .

أو إزالة الأنقاض قبل البناء ، وفى الحديث : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » (١) .

ومن الأعمال الروحية ما هو مختص بعضو واحد ، كاللسان ، الذى يقوم وحده بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار والتلاوة والصلاة على النبى ، والدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومثل اليد التى يكتب بها المسلم العلم النافع ، ويصافح بها المؤمنين ، ويعمل بها فى كسب العيش الحلال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (٢) .

ومثل الرجل التى يمشى بها إلى بيوت الله ، وإلى صلة الأرحام ، وألوان الطاعات المختلفة ، وكذلك سائر الجوارح .

ومن الأعمال الروحية ما هو مختص بالعقل ، مثل التفكير فى مخلوقات الله تعالى وآلئه ، ومنها : الإنسان نفسه : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ﴿ (٣) .

ومثل ذلك : التدبر لكتاب الله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

وكذلك التفكير فى طلب العلم ، وفهمه وهضمه ، وحل معضلاته . ومنها ما هو من أعمال القلب مثل : الإخلاص ، والمحبة ، والرجاء ، والخشية ، والتوكل ، والزهد . . . وغيرها من مقامات الصالحين .

ومن الضروري أن يعرف أن الأعمال كلها لا تقبل عند الله إلا بعمل قلبى أساسى وهو النية المجردة لله تعالى ، بأن يؤدى العمل خالصاً له ، وابتغاء

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى وأحمد والبيهقى فى شُعب الإيمان عن أبى هريرة ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (١٠٠) .

(٢) رواه أحمد والبخارى عن المقدم - صحيح الجامع الصغير (٥٥٤٦) .

(٣) الذاريات : ٢٠ - ٢١ (٤) سورة ص : ٢٩

وجهه ومرضاته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١) .

ومع هذا التنوع الرحب في الأعمال ، فهي ليست في درجة واحدة ، فهي متفاضلة تفاضلاً كبيراً ، فالنوافل دون الفرائض ، وفرائض الكفاية دون فرائض العين ، وفرائض العين المتعلقة بحق الفرد ، دون الفرائض المتعلقة بحق الجماعة .

والأعمال المقصور نفعها على صاحبها مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة ، ليست كالأعمال التي يتعدى نفعها إلى الغير ، وكلما اتسعت دائرة المنفعة بالفعل كانت قيمته أرفع ومثوبته أكبر (٢) .

ولهذا كان الجهاد في سبيل الله « ذروة سنام الإسلام » لما وراءه من درء الخطر عن أمة الإسلام وإعلاء لكلمة الله ، وحماية لدعوة الله ، ومن هنا كانت « الشهادة في سبيل الله » أعلى وأفضل ما يتمناه مسلم لنفسه . فعن سعد بن أبي وقاص : أن رجلاً جاء إلى الصلاة والنبى ﷺ يصلى ، فقال حين انتهى إلى الصف : اللَّهُمَّ آتِنِي أَفْضَلَ مَا تَوْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ! فلما قضى النبى ﷺ الصلاة ، قال : « مَنْ الْمُتَكَلِّمُ أَنْفًا ؟ » فقال الرجل : أنا يا رسول الله . قال : « إِذَنْ يُعْقَرُ جِوَادُكَ وَتَسْتَشْهَدُ [ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ] » (٣) .

(١) البينة : ٥

(٢) راجع في هذا كتابنا « في فقه الأولويات » - فصل « الأولويات في مجال العمل » ص ١٠١ - ١٢٦ ، وفي مجال المأمورات ص ١٢٩ - ١٥٣

(٣) أورده المنذرى في كتابه « الترغيب والترهيب » وقال : رواه أبو يعلى والبخاري وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، انظر : كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » الحديث (٧٥٤) وانظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج ١٠ الحديث (٤٦٤٠) ، والمستدرک : (٧٤/٢) ، وقد وافق الذهبى والحاكم ، و (مجمع الزوائد : ٢٩٥/٥) .

وقد رأينا فقيهاً محدثاً مجاهداً كبيراً مثل الإمام عبد الله بن المبارك يكتب إلى صديقه وأخيه في الله العابد الزاهد الرباني :الفضيل بن عياض ، وهو في أرض الرباط والجهاد ، والفضيل في رحاب الحرمين يتنقل بين مكة والمدينة عابداً متبتلاً ، فأرسل إليه بقوله :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعبُ !

مَنْ كان يخضب خده بدموعه فنحسورنا بدمائنا تتخضبُ

إن ساحة العمل الروحي فسيحة ، وأنواعها كثيرة ، ولكن المؤمن البصير هو الذي يتخير منها ما يناسب حاله .

فلا ينبغي للغنى أن يجعل أكبر همه في التبعّد لله تعالى بصيام الاثنين والخميس ، أو بصيام داود عليه السلام الذي كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، غافلاً عن أن العبادة اللائقة به قبل كل عبادة هي إنفاق المال في سبيل الله

ولا ينبغي للطبيب أن يتبعّد لله بالوعظ والإرشاد ، وحوله من مرضى المسلمين مَنْ يحتاج إلى مَنْ يعالجه من أشد الأمراض فتكاً ، ومَنْ يحرره من ربة الأطباء المتاجرين بأسقام البشر ، والمستغلين لضرورات الخلق .

ولا ينبغي للإمام أو الحاكم أن يتبعّد لله بالحج والعمرة كل عام ، وهو مهمل لأمر رعيته ، غافل عن إعطاء كل ذي حق حقه ، وعن تأديب الفُجَّار والمتعدين لحدود الله .

وهكذا يجب أن نعلم أن أفضل العبادة بالنسبة لكل إنسان ما كان أليق بحاله وألصق بمقدرته ونعم الله تعالى عليه .

\* \* \*